«باتوالا» في مئوية تتويجها بجائزة غونكور

رواية انتفضت منذ قرن على العنصرية والعرقية.. فهل تغيّر الحال؟

البشرة السوداء لا تمنع التميّز (لوحة للفنانة يارا هنداوي)

في الرابع عشر من ديسمبر القادم، يحتفل الوسط الأدبي الأفريقي بمئوية إسناد جائزة غونكور عام 1921 للكاتب الفرنسي الغوياني روني ماران عن روايته "باتوالا"، أول رواية ألفها كاتب أسود من قلب القارة السمراء حيث تدور أحداثها، ومثلت قطعا مع الأدب الكولونيالي الذي كان يكتبه البيض من جهة أبطالها ونظرتهم إلى واقعهم تحت الاستعمار. وقد عُدّت من بين الكتب التي ألهمت رواد الزنوجة وفي مقدّمتهم ليوبولد سيدار سنغور وفرانز فانون وإيمي سيزار، ولكن البيض قابلوها بالاستنكار واعتبروها فضيحة.

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

رواية روني ماران (1887–1960) "باتوالا" هي أول رواية يؤلفها كاتب أسود ناطق بلغة موليير وينتقد الامبريالية الكولونيالية الفرنسية، وهي صيحة مناهضة للاستعمار شبيهة بصيحة زولا "أنا أتهم"، قطعت مع تقاليد الرواية الكولونيالية التي يجامل فيها الكتاب البيض المستعمِرين المهيمِنين على الشعوب الأفريقية.

وقد مهّد ذلك النقد الذي صاغه روني ماران الأرضية لانتقادات أكثر عنفا وأشدّ إدانة لانحرافات المنظومة الكولونيالية الفرنسية، مثل "رحلة إلى الكونغو" لأندري جيد في العام 1927، و"أرض الأبنوس" لألبير لوندر عام 1929.

حملة شعواء

لما كانت أحداث "باتوالا" تدور في أفريقيا، وأبطالها أفارقة كما جاء في عنوانها الفرعي "رواية زنجية حقيقية"، فقد مثلت من جهة إرهاصات ظهور أدب أفريقي خالص، ومن جهة ثانية كانت على درجة من النضج الفني ما أهلها للفوز بأكبر جائزة أدبية فرنسية، ومن جهة ثالثة أثارت زوبعة في الأوساط الأدبية والثقافية، والسياسية بشكل خاص على المستويين الكولونيالي والحكومي، حتى أن سنغور وصفها ساعتها بالقنبلة.

ذلك أن صاحبها قوبل بحملة شعواء أدّت إلى استقالته من وظيفته، كما وصفته الحكومة الفرنسية بأنه كتاب "خطير" فصادرته ومنعت تداوله في أفريقيا؛ وأثار ضجة حتى في الولايات المتحدة بعد أن تُرجم إلى الإنجليزية في مطلع الثلاثينات، حيث أحدث رجة في بلد يمارس الميز العنصري، خصوصا بعد أن تصدّر الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز.

وظل ماران يتألم حتى وفاته من ربط اسمه على الدوام بصفة "أول أسود يحوز جائزة غونكور"، ذلك أنها ما انفكت تضاف إليه كلما ذُكر اسمه؛ وها أن النقاد والمعلقين يعيدون استعمالها بمناسبة إصدار الرواية من جديد إحياء لذكرى ذلك التتويج، وكأن لون البشرة شرط من شروط التنافس، والحال أن ماران لا يرغب إلا أن يعامل كأي إنسان آخر، وهو ما عبّر عنه في كتابه السير ذاتي "رجل كسائر الناس" الذي وضعه عام 1947.

روني ماران ظل يتألم حتى وفاته من ربط اسمه بصفة «أول أسود يحوز جائزة غونكور»، وهو الذي يعتبر نفسه كاتبا وفقط

وكانت الحملة قد بدأت بالتعاليق العرقية السافرة، من ذلك مثلا أن صحيفة لوبوتي باريزيان صدّرت صفحتها الأولى بمانشيت "لأول مرة يلعب السود ويكسبون"، ثمّ نتأت شكوك في أن يكون كاتبها رجلا أسود، حيث اتهم ماران بالانتحال والسرقة الأدبية، دون دليل، ثمّ تحوّلت إلى تنديد بهذا الفرنسي الأسود الذي يعضّ اليد التي أحسنت إليه، لاسيما أنه موظف تابع للإمبراطورية الكولونيالية في أفريقيا، ما اضطره في النهاية إلى الاستقالة، والتفرّغ لكتابة روايات وأشعار وقصص فلسفية أو حكايات على ألسنة الحيوانات، علاوة على عدة سير خصّصها لبناة الإمبراطورية على غرار مَثله الأعلى بيير سافورنيان دو برازا الذي كان مناهضا للعنف.

لم يكن روني ماران مناضلا سياسيا، ولا منظرا أيديولوجيا، ولا وجها بارزا في صفوف الداعين إلى ضرورة تصفية الاستعمار وتحرّر الشعوب من أغلالها مثل فرانز فانون على سبيل المثال، بل كان يعتبر نفسه كاتبا فرنسيا مثل فرنسوا مورياك وجان جيونو وبول فاليري وسواهم، ويحلم بأن تلبي القوى الاستعمارية حاجة الأفارقة إلى الصحة والتكوين والتعليم والمساواة في الحقوق.

كما أن الرواية ليست هجوما مباشرا على الكولونيالية، ولكن ما أثار حفيظة المنتقدين هي التوطئة القصيرة التي مهّد بها الكاتب عمله إذ كتب يقول "أيتها الحضارة، يا فخر الأوروبيين ومقبرة الأبرياء، أنت تبنين مملكتك على الجثث.. تئن الدموع ويصرخ الألم لرؤيتك.. كل ما تلمسينه تحرقينه".

أنشودة حياة

كان ماران ذا ثقافة متينة ونزعة إنسانية عميقة استوحاها من منشئه ومن القيم التي تربى عليها من خلال مطالعاته. شغل خلال ثلاث عشرة سنة منصب مفوّض كولونيالي في أوبانغي شاري ما بين الكونغو وبحيرة تشاد لإيمانه بالمهمة الحضارية للاستعمار الفرنسي، قبل أن يكتشف الحقيقة على أرض الواقع.

وتروي الرواية الانهيار التراجيدي لبلاد الباندا في أوباغي شاري، تحت تأثير الاستعمار، حيث البطل باتوالا شيخ قبيلة هرم، وذاكرة شعب بين حالين، يسترجع عزّ الماضي ويستشف ذلّ المستقبل ويجد صعوبة في فرض سلطته، حيث يفقد السيطرة على كل شيء، حتى على زوجاته التسع، بعد أن همّشه الاستعمار تهميشا صار على إثره عاجزا عن التصدّي للبيض الإفرنج الذين يفكّكون بلاده ويسخّرون أبناءها لأعمال شاقة دون مقابل، ما يدفعه إلى البحث عن حل لمأساته، فلا يرى غير الإدمان على الكحول أو الموت، وفي ذلك استعارة عن أفريقيا التي أدخلها الاستعمار في أزمة وجودية عميقة.

ورغم أن الرواية أنشودة للغاب بنبتها وحيوانها، وللطبيعة الأفريقية في أجلى مظاهرها، فهي أساسا إدانة للاستعمار وما خلّفه من دمار، ودعوة مبطنة إلى ضرورة نهوض الشباب بمهمة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، كي تستعيد البلاد عافيتها.

يقول ستيفان برساك، المحرّر الأدبي لدار ألبان ميشيل التي نشرت الرواية أول مرة منذ قرن وأعادت نشرها مؤخرا إحياء لمئوية فوزها بجائزة غونكور "ما زالت مسألة الكولونيالية وقضايا السود والعرقية حاضرة حتى اليوم في الساحتين الثقافية والسياسية. ولئن واجه روني ماران الفضيحة في عصره، فالفضيحة لا تزال مستمرة، ذلك أن نظرة الآخر إلى الحضارة الغربية تثير حفيظة الغرب، ولذلك نحسّ أن من واجبنا أن نذكّر ونصحّح ونعيد إلى الأذهان تاريخا وذاكرة ورجالا ذوي قيمة هم منارات بالنسبة إلى الجميع".

«حرّاس الحزن» لأمير تاج السر.. المضحك والمبكي في الواقع المتخيل

الخرطوم - في عوالم الروائي السوداني أمير تاج السرّ واقع مغرق في واقعيته وخيال جانح في تفلّته. هناك، في مساحة التناقضات الحادّة تلك، تتجاور المأساة مع الفكاهة الساخرة. هناك يُرمى حديثو الولادة في مكبّات الزبالة، لكن هناك أيضا تراف بهم وتلمّهم امرأة حاذقة هي ذاتها دوما.

هناك يقضي مراهق قبل تسلّمه حذاء "بيليه" الذي كان يحلم بانتعاله، بينما يتلقّف ذلك الحذاء ولد لم يكن ليحلم به. هناك أيضا تعالج عرّافة والدتها من مرض الأمنيات بينما يتساءل بطل الحكاية بجدّية عمّا إن كان هو من قتل المدير. كلّا، ليست سردية غير مترابطة. هي فقط مكثّفة، هي فقط نموذج مصغّر عن الحياة وشخوصها بمآسيهم وأفراحهم، ببراءتهم وخبثهم، بتنوّع نزعاتهم، وبحيرتهم الأبدية أمام المرايا.

وقال الشاعر والكاتب والناقد اللبناني سلمان زين الدين عن الرواية "ينحو أمير تاج السرّ منحى الواقعية السحرية في كتابته، فيعيد للواقع شيئا من سحره المفقود وللحكاية شيئا من ألقها الغريب".

وجاء في تقديم الكاتب تاج السرّ لروايته "ربما كنت متخما بالسعادة، لكنك في الواقع متخم بالحزن. ربما انتبهت إلى الوجوه التي تضحك بكاء وربما لم تنتبه. إنها قصص الواقع المؤلم وأيضا الخيال الموغل في إيلامه، حين تكون ثمة جارة مثل سلوى بطرس، وصديق مثل سعد نزوة، وأوغاد مثل التائه وعبدالعال وزمن مثل زمن النميري".

وولد أمير تاج السرّ بشمال السودان عام 1960، وتلقى تعليمه الأولي هناك، وعاش في مصر بين عامي 1987–1980، حيث تخرّج في كلية الطب جامعة طنطا، ليعمل طبيبا باطنيا، بدأ ممارسة الكتابة في مراحل مبكرة جدا من حياته، ففي المرحلة الابتدائية كان يكتب القصص البوليسية تقليدا لما كان يقرؤه أثناء الطفولة، وفي المرحلة المتوسطة بدأ يكتب الشعر بالعامية، وتغنى مطربون في ما بعد بالكثير من أشعاره.

واستمرت كتابة الشعر حتى خلال دراسته للطب، وأصدر دواوين شعر بالعامية السودانية، وفي عام 1985 بدأ يكتب الشعر بالفصحى ووصل إلى مراحل متقدّمة وكانت قصائده تنشر في مجلات عربية كبيرة ومزدهرة في ذلك الوقت، حيث كان يتوقّع الكثير من أصدقائه أن يظل مستمرا في كتابة الشعر، لكنه في العام 1987 كتب رواية "كرمكول" التي أحدثت أصداء كبيرة في القاهرة.

وفي عام 1996 كتب روايته الثانية "سماء بلون الياقوت" بعد انقطاع عن الكتابة دام عشر سنوات، وهي مستوحاة من بيئة شمال السودان، ثم تلتها رواية "نار الزغاريد" ثم "مرايا ساحلية"، وهي الرواية التي أحدثت نقلة في تجربته الروائية، وكانت عبارة عن سيرة عن منطقة بورتسودان، كما كتب "سيرة الوجع" ثم "صيد الحضرمية" و"عيون المهاجر".

أما البداية الحقيقية والتي تمثل مرحلة الانطلاق والانتشار، فكانت في عام 2002 عندما كتب روايته الأشهر "مهر الصياح" وهي رواية ضخمة ذات طابع تاريخي حقّقت أصداء بعيدة، تلتها رواية "زحف النمل"، لتتواصل التجربة مرورا بـ"توترات القبطي" و"العطر الفرنسي"، وصولا إلى "صائد اليرقات" و"إيبولا 76" و"أرض السودان".

وتُرجمَت أعماله إلى العديد من اللغات العالمية منها الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والفارسية والصينية. ووصلت بعض عناوين روايته إلى القائمتين الطويلة والقصيرة في جوائز أدبية عربية مثل البوكر والشيخ زايد، وأجنبية مثل الجائزة العالمية للكتاب المترجم. ودخلت رواياته في المناهج الدراسية الثانوية الإماراتية والبريطانية والمغربية.

«حرّاس الحزن» ينحو فيها مؤلفها أمير تاج السرّ منحى الواقعية السحرية، فيعيد للواقع شيئا من سحره المفقود وللحكاية شيئا من ألقها الغريب

«الحصان الأبيض» للبنانية هدى عيد تضيء حياة المراهقين

بيروت - تندرج المجموعة القصصية الجديدة "الحصان الأبيض وقصص أخرى" للروائية اللبنانية هدى عيد ضمن إطار الحقل التربوي الذي يستهدف فئة اليافعين، حيث يتم استحضار هموم هذه الفئة العمرية المحيّرة بأسئلتها العفوية وعوالمها الخاصة في ظل متغيرات الحياة المعاصرة والسياق الثقافي الحاضن لها، وخاصة زمن منصات التواصل الكاسح للقيم التقليدية التي يجاهد الأهل للحفاظ عليها.

ويتمّ إظهار خطاب النص في بناء قصصي متعدّد الوظائف من حيث المواقف والأفكار والتوقعات وفي سياقات حكائية متنوعة ومتعدّدة وطريفة أحيانا.

وفي الرواية الصادرة حديثا عن الدار العربية للعلوم "ناشرون" تتّخذ القصة القصيرة العربية تنويعا جديدا في وظيفة الأدب وغايته، وبما يمكن وصفه كتابة نوعية سواء على مستوى الشكل أم المضمون، أم على مستوى التوليف النصي والحواري الذي حوّل كل قصة من قصص المجموعة إلى قيمة وظيفية وتربوية وثقافية في آن معا.

وتقول الأكاديمية اللبنانية هدى المعدراني في قراءة نقدية للمجموعة القصصية "تضيء هذه القصص -كلّ بحسب موضوعها- على حياة المراهق، وتوضّح له مأزمه النفسية، وتوقظ فيه عنفوان شبابه، وثورته وتمرّده، وجنونه وجموحه، وانطلاقته وحبّه للتفوّق. وتعكس تقلباته المزاجيّة ورفضه الآخر النمطي، وتبيّن استغاثته الصامتة بأبويه، وحاجته إليهما".

وتتابع "تتمثّل في القصص حركية الشباب مقابل سكون الكبار، وتُظهر القصص شغف الشباب بالجديد الذي يشدّد على دور الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، واستثمار تقنياتها، كما لا يهمل السرد أن يبثّ بين طيّاته قيما أخلاقية عديدة".

وتضيف "بالمقابل فإن هذه المجموعة القصصية تسعى في مجمل رسائلها الضمنية إلى إشراك القارئ بدافع تنمية ذوقه الجمالي، وانتقاله من دور المتقبّل النمطي إلى الدور التفاعلي الذي يحاور النص ويملأ فيه المسكوت عنه".

وتتألّف المجموعة القصصية من خمس قصص قصيرة جاءت تحت عناوين "الحصان الأبيض"، "الهدية"، "الغاضب"، "صراخ لانا" و"نو إنغلش".

وهدى عيد حائزة على ماجستير في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية، الفرع الأول ببيروت، أستاذة مادة الأدب لصفوف المرحلة الثانوية، أخرجت ثلاث مسرحيات للمسرح المدرسي: هي "مغامرة رأس المملوك جابر" (2003)، و"حنظلة" (2004) و"طقوس الإشارات والتحوّلات" للمسرحي السوري سعدالله ونّوس (2005).

صدر لها عن "دار الفارابي"، "في بلاد الدخان"، (طبعة أولى في 2001، وطبعة ثانية في 2011) و"الحياة في الزمن الضائع" (2006)، و"ركام" (2009)، و"نوّارة" (2011)، و"حياة أخرى" (2012) و"سلطان وبغايا" (2015).

مواقع التواصل غيّرت القيم (لوحة للفنان فؤاد حمدي)